فلسفة الزمان عند ابن رشد من منظور الأستاذ قسوم

الأستاذ لصفر محمد

"جامعة الجزائر02"

الملخص:يتناول هذا المقال نظرة الأستاذ عبد الرزاق قسوم لموضوع الزمان عند اكبر أعلام الفكر الإسلامي في العصر الوسيط "ابن رشد" ،فبالعودة إلى كتاب "مفهوم الزمان في فلسفة آبي الوليد للأستاذ قسوم "،يحاول البحث استخلاص مدى أصالة الفكر الرشدي في تناوله لمفهوم الزمان من خلال تحديد أبعاده الفيزيقية والميتافيزيقية،ولان دراسة تراث ابن رشد تتطلب بالضرورة تبيان مآثره في الفكر الغربي الوسيطي الحديث والمعاصر،فقد حاول البحث تبيان تأثير ابن رشد في الفكر الغربي من خلال موضوع الزمان.

تمهيد :قد نتساءل ونحن بصدد دراسة وتحليل مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد من منظور"الأستاذ قسوم" –ما الهدف من دراسة تراثه وتحليله ،ونحن في القرن الواحدوالعشرونعلى اعتبار أن فكر ابن رشد هو ابن العصر الوسيط يحمل خصوصياته ويهتم باشكالياته ويقف عند حدود إرهاصاته المتباينة .لكن وان تمت الدراسة أو وجدت دراسات – فما تأثير ذلك على الواقع العربي الإسلامي الراهن ؟ خاصة إذا سلمنا بهشاشة هذا الوضع والعجز عن إدراك الذات أو اللحاق بالأخر ؟–وهل تكفي دراسة فكر ابن رشد لتغيير هذا الواقع؟–أمأن انتماء ابن رشد إلى فترة العصور الوسطى يعني موت فكره ؟لعلنا نجافي الحقائق الموضوعية في السياق التاريخي إذا دعينا أننا نمتلك إجابةكافية عن التساؤلات السابقة ،ولهذا سوف نحاول أننستقصي الإجابة اوان نلتمس جزءا منها من خلال تناول موضوع الزمان عند ابن رشد كما فهمه الأستاذ عبد الرزاق قسوم.

المحور الاول:ابن رشد الفيلسوف عند عبد الرزاق قسوم:كثيرة هي الدراسات المعاصرة التي اهتمت بفلسفة وفكر ابن رشد،لكن وان تعددت التفسيرات والتأويلات من خلال دراسة فكره إلاأن هدفها يبقى واحد ، يتمثل في الاعتراف الصريح بعراقة هذا الفكر ، وعليه فان الاجابة عن السؤال السابق – ما الهدف من دراسة فكر ابن رشد في الفترة الراهنة؟تبقى بلاشك واحدة عند جميع المفكرين حتى وان اختلفوا في تفاصيلها وطريقة معالجتها ، وهوالإقرار بدور ابن رشد في صنع التاريخ الإسلاميوالإنساني، على اعتبار أن حلقات الفكر الإنساني مترابطة يكمل اللاحق فيها السابق ،كما يعد ذلك ردا صريحا على من يختزل فكره تحت عنوان الشارح لاغير،فلقد غدت المفاهيم الغربية عن مفهوم الحضارة والتمدن تيارات فكرية ومذاهب في المعرفة ينخرط فيها ويتمذهب لها أولئك الذين ينكرون حق المسلمين في الإبداع، وقد وقف الأستاذ قسوم من خلال مؤلفاته المتعلقة بابن رشد ، أو

مختلف المقالات موقف الرافض لهذه الحملة الشعواء ، رافعا قلمه يوضح أصالة الفكر الرشدي من خلال تبيان مآثره مستنسخا ذلك كله من أعماله الجليلة،فتجده في مقال له تحت عنوان "سلطة التأويل في الخطاب الرشدي –فلسفيا وفقهيا"،يوضح فيه دور الخطاب التأويلي الرشدي على حد تعبيره في تحقيق الانسجام بين الخطاب الفلسفي والخطاب الديني، معلنا بذلك شمولية فكره، يقول الأستاذ قسوم في ذلك:"من خلال استعراضنا لمختلف الصور العاكسة لهذا الخطاب ،كيف أن العقل الرشدي قد بلغ من الشمولية في الطرح،ومن التنوع في مجالات المعالجة ، ومن السمو في درجة الإبداع، مايجعله فريدا من نوعه ، ليصبح مثلا يحتدى به في الفكر والفقه معا"[1] ،ويحمل هذا النص معاني ودلالات تضع ابن رشد في مقام الفقيه والمفكر على السواء على اعتبار ان ابن رشد قد عالج العديد من المسائل الفقهية"[2] وهو مايتضح بجلاء في كتابه "مناهج الادلة في عقائد الملة". كما تجد الاستاذ قسوم في كتابه :" مفهوم الزمان في فلسفة آبي الوليد " يحاول ان يبين مآثر ابن رشد وإسهاماته في الفكر الغربي، مستخلصا ذلك كله من نظرة ابن رشد لموضوع الزمان، وكيف استطاع ابن رشد الجمع بين الفلسفة والشريعة، وخلاصة القول فان الهدف من دراسة ابن رشد الفيلسوف تتلخص فيما قاله فيه الاستاذ قسوم:" ...هو تخليص ابن رشد من القراءة الاختزالية التجزيئية التفكيكية والتي تجعل منه فيلسوفا ناقلا لارسطو او عقلانيا منكرا للدين او فيلسوفا مبتدعا في الملة ... "[3]

المحور الثاني : مفهوم الزمان :

اولا-المفهوم الاشتقاقي للزمن: الزمن والزمان اسم لقليل الوقت وكثيره ، وفي المحكم الزمنوالزمان العصر والجمع أزمن وأزمان وأزمنة وزمن زامن شديد أزمن الشيء طال عليه الزمان والاسم من ذلك الزمن والزمنة عند ابن الأعرابي أزمن بالمكان أقام به زمانا وعاما[4] والحقيقة أن مفهوم الزمن يقابله في اللغة العربية وفق التعريف السابق عدة معاني:حقبة، مدة عصر ،عهد، مدة...،أما كلمة TEMPS في اللغة الفرنسية فهي ذات أصول هندو أوروبية أي مشتقة من كلمة"TEM " والتي تعني القطع ، مما يجعل مفهوم الزمن يعني قطع علاقة فرد بفرد ، أو علاقة فرد بالكل.

وبعد تقديم المعنى الاشتقاقي للزمن يتضح أن مفهوم الزمان من أعقد المفاهيم والمصطلحات الفلسفية ذلك أن الإنسان يستعمل في حديثه عن الزمان مصطلحات عديدة تدل عليه مثل : "وقت" – "قديم" – "حادث" – "دهر" – "أزلي" – "حين" ولعل هذا الثراء اللغوي يؤكد على صعوبة الخروج بمفهوم واضح دقيق وشامل من الناحية الاصطلاحية، على اعتبار أن إدراك مفهوم الزمان من خلال التعريج على المصطلحات السابقة يعكس الدلالة التنوعية لمفهوم الزمان،ويضاف الى ذلك كله الاختلاف حول مشروعية استعمال مصطلح الزمان ،مادام ان بعض المراجع تستعمل مصطلح الزمن بدل الزمان ،ويبدو ان الاستاذ المحترم قسوم لم يولي اهمية بالغة لذلك على اعتبار انه استعمل كلمة "الزمن "و "الزمان" على حد السواء في معالجة موضوع " الزمان في فلسفة ابي الوليد".

ومن جانب آخر فإن تحديد معاني الكلمات السابقة المرتبطة بالزمان فلسفيا يعكس لنا دلالة هذا المذهب أو ذاك خاصة إذا سلمنا بأن لكل مذهب مصطلحاته الخاصة ، ولهذا كان من

الأجدر في تعريف الزمن تتبع معناه في الفكر الفلسفي ذاته من الفترة اليونانية إلى غاية ابن رشد ذلك لأن الدراسة التاريخية وحدها هي الكفيلة بتحديد معناه، فدراسة أي علم أو مصطلح يرتبط بالعلم كما يؤكد على ذلك أوغست كونت لاتتم إلا من خلال دراسة تاريخه .

ثانيا-تطور مفهوم الزمان:

1 -الزمن في الفكر اليوناني : إذا ما رجعنا إلى الفكر اليوناني نجد أول فكرة ظهرت حول الزمن متعلقة بمبدأ الحركة والتغير والتطور لا سيما عند الفلاسفة الطبيعيين "هيرقليدس" ويرجع هذا الاهتمام كون الزمن يرتبط في إطار هذه الفلسفة بالوجود،اذ استعمل هرقليدس كلمة "AION" ايون والتي تعني الموجود دائما، وبالعودة إلى فلسفة أفلاطون وبالضبط في "محاورة طيماوس" يتضح بجلاء الانتقال من التفسير الطبيعي إلى التفسير الميتافيزيقي ،فإذا كان جوهر الفلسفة الميتافيزيقية هو مبني على فكرة الأزلية التي تبحث في قضايا العلم الالاهي والزمان فإن تحديد مدلولها متعلق بالأبدية والقدم والخلود .

وخلاصة القول فإن الزمان عند أفلاطون له بداية مع العالم المكون ويبقى معه "ويفسدان إن فسدا معا والزمان صنع على مثال النموذج وجهد الإمكان والنموذج موجود في كل الأبدية بينما الصورة أي الزمان كان وكائن وسيكون خلال الزمان باستمرار" [5]

وقد حاول أرسطو من بعد أفلاطون تحديد مفهوم الزمن من خلال أبعاده الطبيعية "الحركة – التطور" ،ويتضح مذهبه بشكل أساس في الزمان في المقالة الرابعة من "**السماع الطبيعي**". إذ ينطلق أرسطو بدراسة نقدية للزمان في عرض المذاهب السابقة معتبرا أن ذلك لا يعبر عن فكرة الزمان .بل يعد تشويها لها، وينطبق ذلك على المذاهب الثلاث :الزمان هو الكرة نفسها 2- دورة فلك الكل 3- الحركة بإطلاق ، وقد علق أرسطو على القول الأول معتبرا إياه الأسخف ،وينتقد القول بأن الزمان هو حركة الكل على اعتبار أنه جزء الدورة زمان وليس دورة الدورة .وواضح من خلال ما سبق أن مفهوم الزمان عند أرسطو يرتبط بالمقولات:

الجوهر ، الكم ، الكيف والمكان والوضع والملك والعقل والانفعال والمقولات المتداخلة ،ولعل أبرز مقولة أقرب للزمان هي مقولة المكان والآن،و لتوضيح العلاقة بين الزمان والمكان يضع أرسطو المصطلحات التالية :

هوذا : هو الجزء من الزمان والمستقبل القريب . من الآن الحاضر غير المنقسم .

قبيل : هو قريب من الآن الحاضر إلا أنه جزء من الآن السالف وأما آنفا وقديما فيدلان على الزمان البعيد عنه.

بغتة:واما بغتة فتدل على مايكون في زمان غير محسوس.[6]– وبعد تحديد علاقة الزمان بالمكان ونقده للمذاهب السابقة في الزمان يتوقف أرسطو عند ذكر أهم خصائص الزمان ليستنتج في النهاية مفهوم الزمن من خلال أبعاده الطبيعية : التغير والحركة والتطور ... على اعتبار أن الجهل بالحركة وأنواعها يؤدي حتما إلى الجهل بالطبيعة كلها.[7]

وحاول أرسطو أن يجعل من الزمن تابع للحركة .بل وعدد لها من قبل المتقدم والمتأخر وعليه، إذا كانت الحركة أزلية وأبدية فإن الزمان باعتباره تابعا لها "أزلي – أبدي" ،واستطاع أرسطو بمقتضى ذلك : تقديم نظرة جديدة لمفهوم الزمن من خلال فهم علاقته بالإنسان بمحيطه وبنفسه ،وبالاعتماد على الجوانب الطبيعية "التغير – الحركة" وقد أدى تعريف أرسطو للزمان على هذا النحو إلى التأثير في الفلاسفة من بعد، وبالأخص الفلاسفة المسلمين "ابن رشد – ابن سينا".

<u>في الفكر المسيحي</u> : ارتبط مفهوم الزمن عند رجال الدين في أوربا الوسيطية بمعقولية محكومة بمبدأ السقوط والانحدار، وارتبطت معالجة الزمان عند المسيحيين تاريخيا بمحاولة القديس أوغسطين على اعتبار أنها أول محاولة حاولت إيجاد أسلوب واضح لحل المشاكل المتعلقة بالزمان اللازماني "الله" [8].ففي كتابه "مدينة الله" عكف أوغسطين على إبراز الصلة بين الله الأزلي ووجود العالم اللاحق ؟ ولماذا اختار الله زمنا بعينه ؟وللإجابة عن ذلك :

يقترح أوغسطين أن وجود الله يقوم على الاعتقاد والوحي ،ولهذا فإن القول بأن العالم ليس له موحد فهو ظلال، ويرفض أوغسطين التسليم بزمن محدد أثناء خلق العالم واستمر هذا الاعتقاد فيما بعد إلى غاية نهاية الحقبة الوسطى .

وفي العصر الحديث فقد أحدثت أبحاث ديكارت –هيقل– برغسون تغييرا جذريا لمفهوم الزمن وأصبح التعبير عنه وفق مصطلحات جديدة :الزمان المثالي المطلق – الزمان الاجتماعي والزمكان ...إلخ.

2 –**<u>الزمن في الفكر الاسلامي :</u>**

يقوم مفهوم الزمن في الفكر الاسلامي بالجمع ما بين جميع التصورات على اختلافها وتنوعها المذهبي وبين العقيدة الاسلامية، لإحداث التوازن بين حياة الدنيا والآخرة ،ويرتبط مفهوم الزمان في الفكر الفلسفي الاسلامي كما أكدنا ذلك من قبل بالاتجاهات الفلسفية السابقة ،سواء تعلق الأمر "مذهب أفلاطون – أرسطو– أفلوطين" مما جعل مفهومه يمزج بين البعد الفلسفي الديني .فإذا كان الكندي مثلا متأثر بالتصور الأفلاطوني، فإن ابن سينا جمع بين أفكار أرسطو والفرابي من جهة والتصور الديني في كثير من الجوانب . مثل مفهوم الأجسام التي تشكل المادة والصورة،و اعتبر أن الحركة والسكون والزمان والمكان لواحق للجسم "إن الزمان متعلق بالحركة وهو عدد الحركة بحساب المتقدم والمتأخر فلا وجود للزمان بدون الحركة" [9]

وبالرغم من انتقاد أبوحامد الغزالي للفلاسفة من بعد مستلهما حديثه عن الزمان من التجربة الصوفية والتذوق الصوفي ،إلا أن تصوره للزمان ظل قريبا من الفكر الفلسفي ومبادئه ،على اعتبار أن البعد الزمني عنده تابع للحركة بل هو امتداد للحركة ذاتها ،وقد اتخذ مفهوم الزمن من بعد عند ابن رشد تصورا جديدا يجمع فيه بين التصور الشرعي والبرهان العقلي متخذا من أبحاث أرسطو في الطبيعة وما بعد الطبيعة تصورا جديدا في الفكر الإسلامي، ولعل هذه

النظرة الشاملة هي التي جعلت الأستاذ عبد الرزاق قسوم يهتم بفكرة الزمان عند ابن رشد – فما طبيعة الزمن الرشدي– كما فهمه الأستاذ عبد الرزاق قسوم ؟

3– مفهوم الزمان عند بن رشد:

تعد مشكلة الزمان مشكلة موغلة في الفكر الفلسفي منذ القدم، فقد كشفت المعالجة التاريخية لفكرة الزمان منذ العصر اليوناني "الفلسفة اليونانية" إلى يومنا هذا عن تيارات ارتبطت بطبيعة المبدأ الذي تأسست عليه . ولهذا أصبح من المشروع الحديث عن مذهب أفلاطون في الزمن مذهب أرسطو .وقد أسهم ابن رشد كغيره من الفلاسفة المسلمين في موضوع الزمان مستلهما أبحاثه من الشريعة ومن المصطلحات الخاصة بأرسطو، ويتجلى ذلك بالأساس "في الشروحات" ،لكن وبالرغم من إسهام ابن رشد في إثراء الفكر الإنساني وتأثيره في الفلاسفة اللاحقين باعتباره همزة وصل بين التفكير القديم والحديث، إلا أنه من اللازم تصنيف فلسفة أبي الوليد من خلال العصر الذي نشأت فيه ما دام أن لكل عصر خصوصياته[10]وقد أدتتبع مسار البحث في مشكلة الزمن عند الأستاذ قسوم إلى طرح التساؤلات التالية:–ما مدى أصالة فكرة الزمن في الطرح الرشدي كما فهم ذلك الأستاذ قسوم؟ وما هي انعكاسات ذلك على الفلسفة الرشدية ؟ – وهل ساهمت محاولة ابن رشد من منظور "الأستاذ قسوم" في التأثير في الفكر الغربي ؟

تتضح إسهامات عبد الرزاق قسوم في التعريف بفكرة الزمان على وجه العموم، وعند ابن رشد على وجه الخصوص في كتابيه "مفهوم الزمان في فلسفة أبي الوليد" وكتاب "تأثير الزمان في الفكر العربي الإسلامي"[11] وإزاء معالجته للموضوع في الكتاب الأول يعترف الأستاذ قسوم بصعوبة تحديد موضوع الزمان وهذا نتيجة للاعتبارات التالية :

1–اتساع وثراء المنتوج الفكري لابن رشد حيث أصبح من المتعذر الإلمام بجميع جوانب الموضوع.

2-تناثر مصطلحات عديدة على حد تعبير الأستاذ عبد الرزاق قسوم ترتبط بالموضوع:" الزمان – الدهر – الوقت – الحين – الآن والأبد " ،وباعتبار أن معالجة مشكلة الزمان عند ابن رشد ترتبط مباشرة بشرح المقولات الأرسطية على اعتبار أنها تمثل الثبت الرئيسي لحصر العبارات المتعلقة بالزمان [12]فإن الأستاذ قسوم ينطلق في معالجة الموضوع بالعودة إلى المصدر ذاته "أرسطو" ، ثم يعكف على إجراء مقارنة بينه وبين ابن رشد ،وبالعودة إلى كتاب تهافت التهافت يستنتج أن الزمان هو عدد الحركة بالمتقدم والمتأخر الذي فيه، ولعل تقديم مفهوم الزمان بإدراجه ضمن المقولات الأرسطية على النحو السابق يعبر عن مستوى التطور الذي بلغه ابن رشد .ولأن معالجة فكرة الزمان عند ابن رشد قد اتسعت باتساع مؤلفاته الفلسفية كما أكدنا ذلك من قبل فإن ذلك يدل على أن ابن رشد لم يكتف بمعالجة موضوع الزمان كما هو بل المتعمق لـ: كتابه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" يدرك أشد الإدراك أصالة الطرح الرشدي .بل ويسقط فرضية الناقل كما يؤكد أنصار "المركزية الأوربية" ولكن إذا كان الهدف من طرح "فكرة الزمان" هو التوفيق بين العقيدة الإسلامية والمنهج العقلي – فكيف تم ذلك ؟.

المحور الثالث :أبعاد الزمان:

يقول الأستاذ قسوم في الفصل الثاني من كتاب "مفهوم الزمان في فلسفة أبي الوليد" ما يلي : " يمكن القول بأن جوهر مفهوم الزمان إنما يجب البحث عنه عبر فكرة الأزلية المترامية الأبعاد ...."[13] –لكن ماذا نعني بالأزلية ؟ – وهل هي وليدة الطرح الرشدي أم لها امتدادات في الفكر القديم ؟

يعتبر الأستاذ عبد الرزاق قسوم أن الأزلية عند ابن رشد يجب البحث عنها من خلال الرجوع إلى مصدرها الأول :"الإسلامي – الكلامي – اليوناني"، ذلك لأن الفكرة في حد ذاتها موغلة في القدم وبالأخص الفكر اليوناني (أرسطو) ،لأنه يمثل المنهل الأساسي لفكرة الزمان عند

ابن رشد ،وبعد الانتهاء من عرض الخصائص التي تشكل العنصر الأساسي في فكر ابن رشد والمتعلقة بالزمان "ربط الزمان بالحركة – مقدار الحركة – يقاس بالحركة "يستعرض طبيعة الفكرة في الفكر الإسلامي والكلامي القديم على حد سواء .وقد أدى ذلك كله إلى استخلاص الأبعاد الفيزيقية والميتافيزيقية للزمان .

أولا : البعد الفيزيقي للزمان

ينطلق الأستاذ عبد الرزاق قسوم في تحليله لمفهوم الأزلية وذلك من خلال التساؤل عن مشروعية النظر إليها من زاوية فيزيقية (طبيعية)، فعلى الرغم من أن فكرة الأزلية هي فكرة ميتافيزيقية الطرح إلا أن البعد الفيزيقي للزمان يعتبر أيضا الممهد الطبيعي لدراسة الأزلية وذلك للاعتبارات التالية :

1-اقتفاء ابن رشد لأثر أرسطو في شرحه لكتاب "تفسير ماوراء الطبيعة ".

2-تناول الفلاسفة المسلمين من قبل وبالأخص ابن سينا للزمان من الجانب الفيزيقي والجانب الميتافيزيقي .

3-إن الزمان يمكن أن يعد عاملا أساسيا في تحديد مدلول الزمن ولا يمكن اعتباره أساسيا في تحديد مدلول كل من الأزلية والأبدية.[14]

ويتحدد المفهوم الفيزيقي عند ابن رشد من خلال علاقة الإنسان بالطبيعة ،وما يدل على ذلك كعبارة :الخلق – الإيجاد – الأحداث – التغيير – الجوهر – العرض، أي "ربط الكون ثم التعبير عنه طبيعيا لما يعرف في مجال الفلسفة الطبيعية بمسألة الجوهر والعرض في إطار المقولات" [15] ، كما يتحدد مفهوم الزمان عند ابن رشد من الناحية الفيزيقية في تحديد الأجسام الممتدة وتقسيمها إلى أجسام بسيطة ومتناهية ثم التناهي إلى متناهي بالقوة وهو ممكن بالوجود –لكن إذا كان الهدف من تحديد البعد الفيزيقي عند ابن رشد توضيح معنى البعد

الميتافيزيقي – كيف تم تحديد مفهوم الأزلية بناءا على بعدها الميتافيزيقي؟ – وهل يعد ذلك إحياء لمذهب أرسطو؟

ثانيا: البعد الميتافيزيقي للزمن :

لقد لقيت فكرة الأزلية من أهم الموضوعات أصالة في الفلسفة الاسلامية وذلك لارتباطها المباشر بالالاهيات وبحكم ضرورة هذه الفكرة في أي بناء فلسفي وجب على الدارس لفلسفة أبي الوليد الوقوف عند مفهومها وذلك للاعتبارات التالية :

1-محاولة ابن رشد التوفيق بين العقيدة والاتجاه العقلاني .

2-خطورة استعمال المفهوم في المجتمع الإسلامي .

3-اختلاف الآراء حول مفهومها .

ونتيجة لتأثر ابن رشد بالاتجاهات السابقة فإن دراسة هذا البعد تتم بالمقارنة مع المذاهب الفلسفية الكبرى (أفلاطون – أرسطو) والاتجاهات الكلامية (الأشاعرة) والفلاسفة المسلمين الذين سبقوه (الكندي – ابن سينا) ،ولأن الدراسة النقدية لمثل هذه الموضوعات ضرورية في البحث استوجب الأمر الوقوف عند "وجهة نظر الغزالي" .وبعد تحليل المواقف السابقة ومقارنتها بموقف ابن رشد كان من الضروري الوقوف الى جانب ابن رشد ومبرر ذلك هو الجمع بين "العقل والشريعة" في فهم فكرة الأزلية ،"ولعل ما يرجح كفة ابن رشد على كفة الغزالي هو اعتماد ابن رشد على العقل والشريعة"[16].

وبالرغم من ميله إلى صف ابن رشد والفلاسفة إلا أن النقاش حول هذه المسألة زاد الموقف ثراءا وهو ما ساهم في الحفاظ على الروح الفلسفية.- لكن إذا كان البحث عن الأزلية رجح الكفة لابن رشد والفلاسفة على موقف المتكلمين فكيف كانت نظرته إلى فكرة الأبدية ؟

ينطلق الأستاذ عبد الرزاق قسوم في معالجة فكرة الأبدية من خلال ربطها بفكرة الأزلية ،وبحكم أن فكرة الأبدية قد عولجت في الفكر الإسلامي الفلسفي منه والكلامي،فلايمكن على

الإطلاق ربطها بمجال محدد.وقبل تحديد موقف ابن رشد من فكرة الأبدية تقديم نماذج محددة من الفكر الفلسفي والكلامي الذي اهتم بالفكرة،باعتبار أنها احد الموضوعات المتعلقة بالوجود. وإزاء هذا الاختلاف الواضح من خلال معالجة فكرة الأبدية ،فان الأستاذ عبد الرزاق قسوم يعترف بصعوبة الفصل في المسالة على النحو الذي حدث مع فكرة الأزلية .لكن ومن منطلق التسليم بفكرة الأزلية ،فان التسليم بالأبدية هو أمر ضروري ،ويستنبط ذلك من خلال إجابة ابن رشد عن سؤال يتعلق بأصل الموجودات:"فإذا كان كل موجود يلزم ان يكون باقيا من جهة ماهو موجود فان العدم أمر طارئ عليه"[17].–لكن إذا كان التسليم بحدوث العالم والزمان وفنائه يدخل ضمن التنزيه –فماهو تعليق بن رشد على ذلك؟

ان لابن رشد نظرة معتدلة توازن بين موقفه الموجه إلى العامة وموقفه الموجه إلى الخاصة من العلماء ،إذ يرى بان عبارات : الخلق الحدوث وغيرها لاتعني الحدوث الذي هو في الشاهد ،على اعتبار أنها تصلح لتصور الحدوث الذي هو في الشاهد،لان تصور الحدوث أو القدم بدعة في الشرع ،ويوقع صاحبه في شبه عظيمة تفسد عقائد الجمهور وخاصة الجدليين منهم[18].

<u>المحور الرابع : تأثير ابن رشد في الفكر الغربي:</u>"الرشدية اللاتينية"

أفرزت الثورة المكتسبة عن طريقة الترجمة ظهور حركة فكرية وفلسفية داخل المجتمع الأوربي ،حين أدرك مفكروا العصور الوسطى أهمية وقيمة آراء الحكيم الأندلسي وشروحه على أرسطو .فنشأ مذهب الرشدية اللاتينية القائم في أساسه على الأخذ بالآراء العقلية والترفع عن كل الاعتقادات اللاهوتية ونقض المعاملات الكنسية المتطرفة، إذن "فالرشدية هي ذلك التراث الكامل لأرسطو كما شرحه إبن رشد وكما قبله بعض الفلاسفة اللاتين الذين يطلق عليهم إسم الرشديين" [19]. ،ولأن تأثير ابن رشد لا يتعلق بمسائل محددة: الخلود – النفس فقد حاول الأستاذ قسوم تناول مشكلة الزمان عند ابن رشد وتأثيرها في الفكر الغربي.

اولا :الرشدية المسيحية : لقد وجدت الأفكار الرشدية منذ بدأت عقول ممتازة بقراءة ودراسة التراث العربي الإسلامي المترجم إلى اللاتينية سعت بكل ما لديها إلى فحص الآراء الفلسفية ومقارنتها بالعقيدة الإسلامية، فبالرغم من وجود معارضين للفلسفة الرشدية داخل الفكر المسيحي،فنشأت تيارات فلسفية اتخذت من الفلسفة سندا لها لمعرفة الله و خلود النفس وبعض المعارف الميتافيزيقية الغائبة عن الفكر ،ومن هنا اختلفت الآراء الفلسفية حول حقيقتها من مؤيد ومعارض.– لكن فيما يتجلى تأثير ابن رشد في الفكر المسيحي من خلال مسالة الزمان ؟

توما الاكويني : "1225 – 1284"

كان القديس توما الاكويني من أشهر معارضي فلسفة ابن رشد ونقادها فلقد وقف على جوانب هذه الفلسفة ونقد ما احتوته من أفكار بسبب اصطدام أفكار أبي الوليد ببعض الحقائق الايمانية وانطلق توما في نقد هذه الفلسفة من المبادئ الأرسطوطالسية :"فأول شيء وضعه أن أرسطو أخطأ في شيء والعرب الذين جاؤوا من بعده زادوا على فلسفته أشياء فازداد الخطأ بذلك ولكن لباب فلسفة أرسطو صحيح" [20]

ولكن لم يقف توما في نقده عند حدود نظريات ابن رشد الدينية والفلسفية، وإنما وجه انتقادات الى أتباعه من الرشديين الذين تبنوا آراءه من بعده ،فالفلسفة التي لا ينبعث الحق من ورائها غير مجدية لا سبيل لدراستها فهي مضيعة للوقت ومقبرة للنفس، لكن رغم التعارض والنقد الشديد إلا أننا نجد آثار الفلسفة الرشدية أعمق وأنضج وإن كانت أخفى في الظاهر في المسار الفكري لتوما ،على الرغم أنه لا يذكر المصادر التي استقى منها تفكيره وفي ذلك يقول رينان "يعد القديس توما في وقت واحد أخطر خصم للمذهب الرشدي والتلميذ الأول للشارح العظيم بلا منازع .. فإن القديس توما مدين لابن رشد في كل شيء تقريبا ولا مراء في أن أهم اقتباساته منه هو في شكل مؤلفاته الفلسفية "[21]، والحجة التي نوردها حول تأثر توما

بابن رشد .التقريب الذي أراده المستشرق أربين بلاسيوس واضعا كتابا خاصا يبين مدى التأثير فلقد ذكر أن هناك طريقين اتفق فيه كل الفيلسوفيين:

أ- طريق المعارف التي تلقاها توما ووصلت إليه عن طريق موسى بن ميمون ولما كان ابن ميمون من التلاميذ المخلصين كان من المحتمل تاثير ابن رشد على توما .[22]

ب –طريق الالتقاء ونشر مؤلفات ابن رشد بتوكل من ريموندو مارتان أحد جماعة الدومينيكان . ومن المعروف أن توما كان أحد عناصر هاته الجماعة[23]

ولعل المتفحص لفكرة الزمن في كتابه "الردود على الخارجين على المسيحية "في فصله الخامس عشر يدرك أن توما في طرحه لفكرة الزمان لم يستطع التحرر من الأثر الرشدي وبخاصة "المقدمات – النتائج – المصطلحات " وهو ما يمكن توضيحه من خلال النصوص الأخرى.[24]

وقد استطاع توما الاكويني بحسب أغلب الدارسين وتحت تأثير ابن رشد العدول عن بعض أفكاره القديمة ،فبعدما كان يعتقد أن "فكرة الخلق" مرتبطة بنظرية الفيض التي نادى بهاأفلوطين تبنى فيما بعد افكار ابن رشد وارسطو :"فعبارة القديس توما المعروفة وهي أن علم الله هو علم الموجودات وقد استطاع توما الاكويني من خلال ارتباطه بنظرية ابن رشد الوصول إلى نتائج جديدة تؤكد العلاقة بين الزمان والجوهر ولعل هذا التأثر يتضح بجلاء من خلال "فكرة الأزلية والأبدية"[25].

وبالرغم من أن مسألة الخلق تميزت بالبحث المستفيض عند توما الاكويني ،إلا أن الفلاسفة الرشديين من بعد يرفضون الفكرة ،وبالأخص فيما يتعلق بأزلية الحركة والزمان "فالصلة الأولة التي تنتج بذاتها مباشرة وبكيفية ضرورية العقل الأول الذي هو مشترك معها في الأزلية ما دام هو الفعل المباشر للعلة الأولى[26].

ثانيا :الرشدية اليهودية :

إسحاق البلاغ : يمثل اسحاق البلاغ في الفكر اليهودي ما يمثله سيجرالبرباني في الفكر المسيحي، ذلك أن البلاغ تعمق في الفكر الرشدي ،وتبنى خطوطه الكبرى ودافع عنها فلقد أصبح ممثلا بحق عن النزعة العقلية ومن أهم المشاكل الرشدية التي اهتم بها اسحاق البلاغ بالإضافة إلى مشكلة الحقيقتين وجود الله وأهميتها بالنسبة للفلسفة ،وعلى ضوء تلك المشاكل يتساءل الأستاذ قسوم عن كيفية معالجة موضوع الزمان، الاجابة من خلال قول اسحاق البلاغ :"يمكن تلخيص القبلية والبعدية في الزمان الذي هو أكثر المدلولات تضمنا لها وهكذا يصبح لزاما علينا بالقياس إلى الزمان النظر في العلة بوصف المعلول وهو ما يسيد التلازم الزمني لعلاقة العلة " [27]

تطور مفهوم الرشدية اليهودية خلال القرن الرابع عشر بانضمام مفكرين جدد أشهرهم ليفي بن جرشون فلقد تصدى لأفكار ابن رشد بل حاول ايقاف انتشارها ،ولكن المتأمل في أعماله الفكرية يجد أن معظمها مطابق لآراء ابن رشد، إذ حاول التعليق على مؤلفات ابن رشد والمراجع التي وردت بخصوص أعماله الفلسفية وأقام شرحا كاملا على هذه الفلسفة حتى صار شرحه هذا قريبا من فلسفة أرسطو "اذ استنتج من خلال هذه الشروط امكانية جعل تركيبا منسجما بين الفلسفة والتنزيل " [28]

ولكن مع نهاية القرن الخامس عشر بدأت الرشدية اليهودية تضمحل وتفقد أنصارها وصار البابا يستعيد سلطته شيئا فشيئا ومع بداية القرن السادس عشر اختفى مذهب الرشدية اليهودية وانتصرت الكنيسة التي كانت تؤمن بالحقائق الموحاة.

تأثير ابن رشد في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر :

لعل السؤال الذي نطرحه ونحن بصدد الحديث عن تأثير الرشدية في الفكر الغربي الحديث والمعاصر هو من أي زاوية فكرية وصلت أفكار ابن رشد في مسألة الزمان إلى عقول الفلاسفة المحدثين ؟ – وإذا كان هذا التساؤل هو الذي شغل الأستاذ قسوم والباحثين في الفكر العربي من قبل، فإن المطلع على الفكر الغربي الحديث والثورة التي أحدثها رواده في الفلسفة والدين ضد المعارف التي ورثوها من مرحلة العصور الوسطى ،يدرك أتم الإدراك أن التفكير الفلسفي في هذه المرحلة نشأ وترعرع من أصول مختلفة، ويرجع أسباب هذا التطور إلى مصادر يونانية بحتة، وبهذا الحكم القاسي لا نجد أثرا لفلسفة ابن رشد في التفكير الحديث والمعاصر وذلك للأسباب التي تميزت بها الفلسفة ما بعد المدرسية ومن أبرزها :

- تقلص دائرة المعارف الرشدية بعد العاصفة الهوجاء التي شنتها الكنيسة .
- ظهورشروح على الفلسفة اليونانية غير الشروح التي صدرت عن ابن رشد من خلال تمكنهم من اللغة اليونانية.[29]إلا أن أبطال عصر النهضة لم ينطلقوا من العدم بل كان ورائهم تاريخ مرير، وهذا التاريخ هو تاريخ الفلاسفة العرب والمسلمين . ولقد أشاد إنجلز بدور الفلاسفة المسلمين حينما أكد أن المفكرون الغربيون ورثوا حرية الفكر المشرق عن المفكرين العرب،وإذا سلمنا بهذه الفرضية فإن تأثير ابن رشد في الفكر النهضوي الأوربي لا مجال لإنكاره ما دام أن ابن رشد من أبرز أولئك الفلاسفة المسلمين وأكثرهم حجة .

ويذهب الأستاذ "عبد الرزاق قسوم " إلا أن تأثير الرشدية من خلال فكرة الزمان في الفلسفة الحديثة والمعاصرة غير معدوم ،وإن كان تأثير غير مباشر ،فإذا كان اهتمام الفلاسفة المحدثين والمعاصرين من ديكارت إلى ج. بول سارتر مرتبط بخاصية الوجود بالرغم من تعدد التفسيرات للزمان ذاته، فان الباحث والمدقق لفلسفة ابن رشد يجد أن ابن رشد ربط مسألة الزمان بالوجود[30]،كما درس الزمان في جانبه العلمي (الفيزيقي) مما يخلق لدينا أرضية

واسعة لبحث موضوع الزمان في الفلسفة الحديثة والمعاصرة بالزمان عند ابن رشد (الهوية).ومن جملة الأمثلة التي تدل على تأثير فكرة الزمان الرشديةمثال عن الكوجيتو الديكارتي حيث استطاع ديكارت جعل الزمان قاعدة أساسية لفهم الكائن وهو نفس الاتجاه الذي تبنته الفلسفة الوجودية .

وكخلاصة نستطيع القول بأن مفهوم الزمان الرشدي من منظور قسوم تتضح معالمه من خلال إجراء مقارنات مع المذاهب الفلسفية الكبرى ، سواء السابقة أم اللاحقة وقد استطاع عبد الرزاق قسوم بدقة تحليله لمفهوم الزمان وسعة فهمه التعريف بفلسفة ابن رشد في الزمان وجعلها أساسا لوحدة التفكير الديني والفلسفي.

الهوامش

[1])عبد الرزاق قسوم ،سلطة التاويل في الخطاب الرشدي فلسفيا وفقهيا ،مجلة دراسات فلسفية ،السنة الثالثة ،العدد الخامس،السداسي الاول جامعة الجزائر ،1998ص203-204

2)محمدعابدالجابري: فيلسوفيخرجمنبيتفقه،مجلة (فكرونقد)العدد5،س1/1998. ص5

3) مقتبس من حوار الاستاذ قسوم ،مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية ،هيئة التحرير ا.د ثروت ارماغان.ا.د محمد خليل ،تصدر عن مؤسسة استنبول للثقافة والعلوم.

[4])ابن منظور، لسان العرب،ط1،الجزء13،دار صادر ،بيروت،ص199

[5])حسام الدين الالوسي،الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،2005ص68

[6])عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ،1986 ص53

[2])ارسطو طاليس،كتاب الطبيعة ،ت:اسحاق بن حنين ،ت:عبد الرحمن بدوي،الدار القومية للطباعة والنشر ،القاهرة،1964ص418

[8])انظر : حسام الدين الالوسي،الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم،مرجع سابق ص131

[9])محمد الحر ،ابن سينا ،دار الكتب، بيروت،1991 ص63

[10])عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد،مرجع سابق ص49

[11])مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد" موضوع رسالة الماجستير للاستاذ قسوم من جامعة القاهرة ، 1975 ،اما كتاب: تاثير الزمان في الفكر العربي : موضوع رسالة الدكتوراه من جامعة السربون.

[12])عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد،مرجع سابق ص51

[13])نفس المرجع ص69

[14])نفس المرجع والصفحة.

[15])نفس المرجع ص87

[16])نفس المرجع ص136

[17])نفس المرجع ص 165

[18])انظر في ذلك :ابو الوليد ابن رشد،مناهج الأدلة في عقائد الملة ،تحقيق: محمود قاسم، القاهرة،1955ص206

[19])زينب محمود الخذيري، تأثير ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،1993ص84

[20])فرح انطون ، ابن رشد وفلسفته،ط2، دار الفرابي، الجزائر،2005ص147

[21])ارنست رنان، ابن رشد والرشدية، ترجمة : عادل زعيتر،دار احياء الكتب العربية،القاهرة،1957ص250

[22])يعتقد الاستاذ قسوم ان مسالة تتلمذ موسى بن ميمون على ابن رشد هي مسالة خلافية يصعب من الناحية التاريخية التسليم بها .راجع: عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد،مرجع سابق ص174

[23])ميخائيل ضومط، توما الاكويني،المطبعة الكاثوليكية، بيروت،1956ص39

[3]للتوضيح اكثر انظر كذلك:محمد البيضار،في فلسفة ابن رشد:الوجود والخلود،ط3،دار الكتاب اللبناني ،بيروت،1983ص215

[25])عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد،،مرجع سابق ص194

[26])Mondammet (poire) siger de brabat et l'averroismelatine .tone I p 229 نقلا عن:) عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد،،مرجع سابق ص196

[27])نفس المرجع ص178

[28])علي سامي النشار، الفكر اليهودي وتاثره بالفلسفة الاسلامية، منشا المعارف، الاسكندرية(مصر)،1972 ص 245

[29])عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد،،مرجع سابقص165

[30])نفس المرجع ص203

المصادر والمراجع :

1)عبد الرزاق قسوم ،سلطة التاويل في الخطاب الرشدي فلسفيا وفقهيا ،مجلة دراسات فلسفية ،السنة الثالثة ،العدد الخامس،السداسي الاول جامعة الجزائر ،1998.

2)محمدعابدالجابري: فيلسوفيخرجمنبيتفقه،مجلة (فكرونقد)العدد5،س1/1998.

3) مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية ،هيئة التحرير ا.د ثروت ارماغان.ا.د محمد خليل ،تصدر عن مؤسسة استنبول للثقافة والعلوم.

4)ابن منظور، لسان العرب،ط1،الجزء13،دار صادر ،بيروت.

5)حسام الدين الالوسي،الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،2005.

6)عبد الرزاق قسوم ،مفهوم الزمان في فلسفة ابي الوليد ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ،1986 .

7)ارسطو طاليس،كتاب الطبيعة ،ت:اسحاق بن حنين ،ت:عبد الرحمن بدوي،الدار القومية للطباعة والنشر ،القاهرة،1964.

8) محمد الحر ،ابن سينا ،دار الكتب للطباعة والنشر، بيروت،1991 .

9)ابو الوليد ابن رشد،مناهج الأدلة في عقائد الملة ،تحقيق: محمود قاسم، القاهرة،1955 .

10) زينب محمود الخذيري، تأثير ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،1993.

11)فرح انطون ، ابن رشد وفلسفته،ط2، دار الفرابي، الجزائر،2005.

12)ارنست رنان، ابن رشد والرشدية، ترجمة : عادل زعيتر،دار احياء الكتب العربية،القاهرة،1957.

13)ميخائيل ضومط، توما الاكويني،المطبعة الكاثوليكية، بيروت،1956.

14) للتوضيح اكثر انظر كذلك:محمد البيضار،في فلسفة ابن رشد:الوجود والخلود،ط3،دار الكتاب اللبناني ،بيروت،1983 .

15)علي سامي النشار، الفكر اليهودي وتاثره بالفلسفة الاسلامية، منشا المعارف، الاسكندرية(مصر)،1972 .